طوينا «ذاكرة الصحافة المغربية» التي ستصدر في كتاب، لنحلق بعيدا في رحاب نفس القطاع، ولكن مع الاختلاف في كون السفر الأول كان في الزمان، رجوعا إلى ماضي المؤسسين، وهذا السفر الثاني هو سفر في المكان بحثا عن بروفايلات ومسارات الصحافيين المغاربة العاملين بالخارج. هم كثر يعدون بالمئات، متألقون، حيث يشتغلون في القارات الأربع وفي أكبر المؤسسات الإعلامية عبر العالم، منهم المدير والمسؤول ورئيس التحرير وكبير المراسلين، ومنهم المحرر والمراسل الحربي والمحلل، لهم حكايات وقصص ومغامرات تستحق أن تروى لتكون شاهدا على أن السؤال الذي نطرحه هنا يبقى مشروعاً: لماذا توجد أنفس الكفاءات الصحافية في الخارج والإعلام هنا في الوطن يئن؟ الجواب في ثنايا هذه الشهادات لكتاب التاريخ اليومي بأقلام سفراء المملكة الشريفة.

العدد: 635 ▫ 16 - 22 أكتوبر 2014

يونس آيت مالك الصحافي المغربي بهيئة الإذاعة والتلفزة البريطانية

عدم منح تراخيص لتلفزات خاصة بالمغرب كان خطأ كبيرا

مع الـ "بي. بي. سي" مرة أخرى، ومع صحافي مغربي من الجيل الجديد. يونس آيت مالك دخل معهد الصحافة بالرباط ليتوج موهبته الصحافية بالتكوين الأكاديمي ويطوف بعدها على ما تيسر من منابر إعلامية مغربية من "الاتحاد الاشتراكي" إلى "الصحيفة" فـ"ميدي 1 تيفي" وراديو أصوات، وبعدها سيطير إلى لندن حيث يزاوج بين العمل الإذاعي والتلفزيوني في واحدة من أعرق المؤسسات الصحافية في العالم.

حاوره: مصطفى منصور

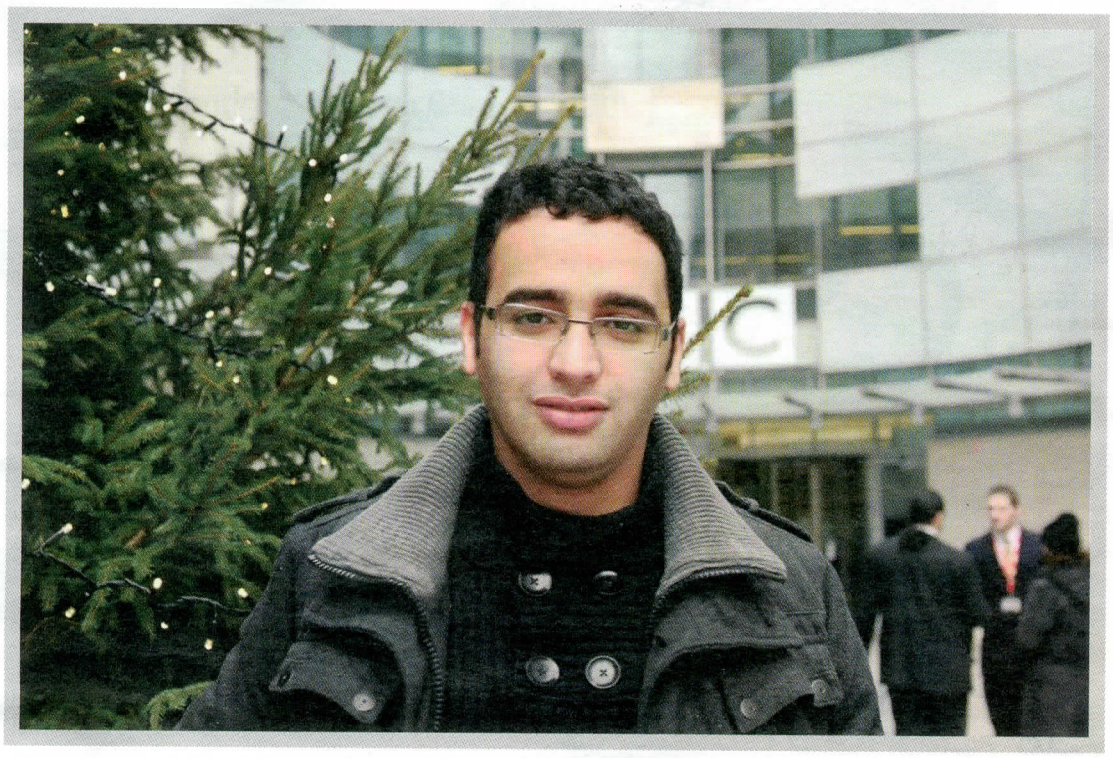

يونس آيت مالك

بعد إنهاء تعليمك الثانوي، اخترت متابعة الدراسة بشعبة الصحافة، هل كان ذلك تتويجا لشغف بحب هذه المهنة، وهل كنت تخطط لهذا المسار؟

■ **لم ألج عالم الصحافة بالصدفة. كانت حلم طفل يتسمر أمام شاشات التلفزيون لساعات، تعجبه أحاديث المذيعين الشيقة وينظر لحركات شفاههم بإعجاب. كنت كذلك طفلا فضوليا لا أتوقف عن طرح الأسئلة الخمسة التي سأتعلمها في ما بعد في معهد الصحافة بالرباط. كان الأهل يتنبؤون لي بممارسة مهنة الصحافة، إذ كنت أزعجهم بأسئلة لا يجدون لها جوابا في أحايين كثيرة: الأهم هو الأسئلة كما يقول أفلاطون.**

وأتذكر أستاذة اللغة العربية في سنتي الثانية في المدرسة. كنت تطلب منا نحن التلاميذ كتابة جمل مفيدة. ولأني كنت متابعا جيدا للأخبار، لا أكتب سوى صياغات خبرية حول حرب البلقان ومجازر البوسنة والهرسك في بداية تسعينيات القرن الماضي. نادتني يوما وقالت: "يونس، أنت تشاهد الأخبار كثيرا، استمر في ذلك ربما قد تصبح صحفيا في المستقبل".

وحدث كذلك أن كان بيت العائلة قرب مقر إذاعة الدار البيضاء، فكنت ذلك الطفل الذي يقف أمام المقر طالبا من أحدهم أن يدخلني إلى استوديوهات الإذاعة كي أحضر برنامج مسابقات أو برنامج أطفال يسجل في مقر الإذاعة بشارع أمكالة.

وكان الشغف بالأدب دافعا آخر لاختيار هذه المهنة النبيلة. اعتبرت الصحافة أيسر السبل إلى امتهان الكتابة والبقاء قريبا من عوالمها الجميلة.

وكان إذن ولوج المعهد العالي للإعلام والاتصال بعد حصولي على شهادة الباكلوريا تتويجا لكل ما ذكرت آنفا.

ستمر سنوات التعليم الجامعي سريعا، وقبل أن تكمل دراستك، ستدخل غمار العمل وأنت في السنة الأخيرة، عملت في جريدة "الاتحاد الاشتراكي" وبعدها في "الصحيفة" ثم القناة الثانية، ثلاثة منابر في وقت وجيز، كيف ذلك؟

■ **يتيح المعهد العالي للإعلام والاتصال للطالب فرصة الولوج إلى عوالم الصحافة قبل حصوله على الدبلوم. كنت ما أزال طالبا في السنة الثالثة حين بدأت تدريبا في جريدة "الاتحاد الاشتراكي". كان يفترض أن أقضي بالجريدة شهرا واحدا لا أقل ولا أكثر كدأبهم مع أغلب الطلاب الصحفيين.**

وجاء يوم نهاية التدريب، كان يفترض أن أسلم على الصحفيين واحدا واحدا. بدأت برئيس التحرير الذي سيخبرني بقرار الإدارة تمديد فترة تدريبي أشهرا إضافية.

مكثت في "الاتحاد الاشتراكي" خمسة أشهر إضافية تعلمت فيها الكثير. رغم تراجع مبيعات الصحيفة، إلا أنها تظل مدرسة صحفية تعلمت منها أنا الذي كنت أتطلع للعمل في صحيفة من حجم الاتحاد الاشتراكي.

غادرت صحيفة "الاتحاد الاشتراكي" لظروف لا أحبذ ذكرها. وجهتي الآن مجلة "الصحيفة". كانت هذه الأسبوعية اللامعة آنذاك تستعد لتغيير مسارها. قرر مالكوها تحويلها من مجلة أسبوعية إلى صحيفة يومية. كانت وقتها في حاجة إلى صحفيين يعززون طاقمها المخضرم. عملت في ملحق الإعلام بها وأعتبرها تجربة مميزة بحق.

وبالموازاة مع عملي في جريدة "الصحيفة"، كنت أزور القناة الثانية بين الفينة والأخرى لمراقبة محتوى ما يبث على الشاشة بالأمازيغية. ساعدتني هذه التجربة على الاحتكاك ولو قليلا بعالم التلفزيون وعوالم الإنتاج.

لماذا اخترت العمل قبل إنهاء الدارسة الجامعية؟

■ **من حسن حظنا ربما أن الموجة الأولى من التراخيص التي منحت لبعض الإذاعات وقناة تلفزيونية واحدة كان في السنة الأخيرة في معهد الصحافة. ساعدنا ذلك كثيرا في ولوج عالم الصحافة بسلاسة ويسر. كانت فرص العمل متوفرة بكثرة ولم يكن فوجنا في حاجة للذهاب للبحث عن عمل. بل بالعكس، يأتي مديرو القنوات والإذاعات إلى المعهد بحثا عن الكفاءات الصحفية المتخرجة حديثا.**

ولأن مهنة الصحافة ممارسة، لم يكن أمام الطالب إذ ذاك إلا أن يستجيب للعروض المغرية المقدمة أمامه، وكنت واحدا منهم. لم تترك لنا في الحقيقة مهلة للتفكير في إتمام الدراسة الجامعية والحصول مثلا على الدكتوراه في أحد المجالات المرتبطة بالإعلام. آختار أغلبنا العمل، قليلون فقط، بل يعدون على رؤوس الأصابع، من اختاروا إتمام الدراسة والابتعاد ولو قليلا عن فوائد ومصائب العمل الإعلامي.

بعد حصولك على الدبلوم ستتوجه مباشرة صوب "ميدي أن سات" القناة الإخبارية حديثة النشأة آنذاك بطنجة، كيف مرت هذه التجربة؟

■ **سأقرر في لحظة ما أن أتخلى ولو مؤقتا عن العمل في جريدة. يممت وجهي بعد الحصول على دبلوم المعهد شطر طنجة حيث مقر القناة الوليدة. كانت قناة ميدي 1 سات وقتها أول قناة إخبارية في المنطقة المغاربية. كانت مشروعا واعدا وفرت له الإمكانيات المالية والبشرية اللازمة لهكذا مشروع ضخم.**

وكأي حلم جميل في المغرب وئد في مهده. لم تساير إدارة القناة حماس صحفييها، بدا أن لها رأيا آخر وتوجها مغايرا.. أردنا قناة إخبارية واعدة، وأرادوها نسخة مشوهة من القناة الثانية، أو في أحسن الأحوال قناة "تجتر" ما ترسله وكالات الأنباء من صور وتقارير لا أقل ولا أكثر. لم نكن نجرؤ في بعض الأحيان حتى على تغطية أخبار مغربية، ولك في الانتخابات التشريعية لسنة 2007 خير مثال، حيث تقرر عدم إعطاء هذه الانتخابات حيزها الذي تستحق لحاجة في نفس مديرها آنذاك.

كانت تجربة مميزة رغم كل الصعوبات الآنفة الذكر والتي قد يطول شرحها، ولا يتسع هذا الحيز الضيق لذكرها.

كانت ساعات البث بداية في هذه القناة لا تتجاوز الثمانية، هل لك أن تحكي لنا تجربتك في هذه القناة المغربية؟

■ **بدأت في هذه القناة محررا صحفيا أكتب التقارير وأتابع التطورات الخبرية الدولية. كانت أعيننا مصوبة إلى شاشات الحاسوب في انتظار وصول صور وكالات الأنباء العالمية مثل وكالة الأنباء الفرنسية ورويترز ووكالة الأسوسيتد برس.**

كذلك غطيت أمسيات ثقافية في مدينة طنجة على ندرتها من بينها حفل تأبين

الشاعر الراحل محمود درويش وقتها، وبعض المعارض الفنية التي كانت تقام بين الفينة والأخرى في غاليري تابع لمعهد سيرفانتس الإسباني. هذا للذكر لا الحصر.

غطيت كذلك الانتخابات الجماعية لسنة 2009. وقد أوفدتني القناة إلى مدينة العيون المغربية لمتابعة حمى المحليات هناك. إلى جانب حرارة المدينة المفرطة، كانت حرارة التنافس الانتخابي على أشدها في المدينة. وساعدني ذلك على إنجاز روبورتاجات عن المدينة أفتخر بها، لكن لا أتذكر إن كانت قد بثت كلها.

غطيت كذلك للقناة وصول أول سفينة حاويات إلى ميناء طنجة المتوسط، وكان ذلك حدثا كبيرا بالنسبة للقائمين على هذا المشروع.

هذا بعض مما علق في الذاكرة، وقد أكون نسيت الكثير.

← لماذا لم يطل المقام بقناة طنجة سوى سنتين، وغادرتها سنة 2009؟

■ كانت تغطيتي للفيضانات التي ضربت وقتها ضواحي القنيطرة ومنطقة الغرب عموما الدافع وراء بداية التفكير في مغادرة القناة بل والبلاد كلها. بثت القناة روبورتاجا أنجزته لمرة واحدة فقط، قبل أن تقرر الإدارة وقتها وقف بثه في النشرات اللاحقة في ذلك اليوم. بل وبدأت المضايقات من حينها، قبل أن أقدم رسالة الاستقالة مباشرة بعد نهاية الانتخابات الجماعية، أي في يونيو 2009. غادرت القناة وفي النفس غصة.

← بعد ذلك عملت في إذاعة خاصة بالدار البيضاء، وفي نفس الوقت كنت تعد نفسك لمباراة "بي بي سي"، كيف مرت أسابيع العمل القليلة في راديو أصوات وهل كنت تعتبرها فقط محطة انتقالية صوب لندن؟

■ عملت في إذاعة أصوات لأشهر معدودات. اعتبرتها محطة استراحة كالمحارب يستريح بين معركتين. ورغم المدة القصيرة التي قضيتها بهذه الإذاعة المحترمة، فإني تعلمت فيها الكثير. لم يكن هينا البتة الانتقال من التلفزيون إلى الإذاعة. كأن ترتيبات القدر كانت تمهد لما سيأتي، عملت معدا وقارئا لنشرات الأخبار في الإذاعة. وكلفت كذلك بإعداد ملف حول عشر سنوات من حكم الملك محمد السادس. كانت تجربة مميزة بحق.

لم يطل المقام بإذاعة أصوات. إذ بموازاة العمل بها، كنت بصدد اجتياز مباراة الولوج للقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية في لندن. تعددت الامتحانات وهدفي من كل ذلك تحقيق حلم آخر بالعمل في إحدى أعرق المؤسسات الصحفية في العالم.

تحقق الحلم في نونبر 2009. ولم يكن هناك بد من مغادرة هذا الوطن إلى أوطان أخرى تقدر الإنسان صحفيا كان أو طبيبا أو مدرسا....

← منذ 2009 وأنت تعمل في لندن، ما هي أهم تجارب العمل التي علقت بذاكرة يونس آيت مالك؟

■ بدأت العمل في الإذاعة. أحرر التقارير وأتلوها على مسامع مستمعي الإذاعة. كنت كذلك أعد وأخرج الجولات الإخبارية على الهواء. وبالإضافة إلى ذلك، كنت مترجما ومحررا لنشرات الأخبار في الإذاعة.

ساعدتني تجربتي القصيرة في قناة ميدي 1 سات الإخبارية على سرعة الاندماج في عوالم وسائل الإعلام الإخبارية. كان تحرير نشرات الأخبار عملا مضنيا وشيقا في آن واحد.

انتقلت بعد ذلك إلى العمل ضمن فريق برنامج "بي بي سي اكسترا"، وهو واحد من البرامج المميزة في الإذاعة العريقة. هذا البرنامج لا يتناول شؤون السياسة إلا من زوايا محددة تغفلها نشرات الأخبار. وهو برنامج مجلة إذاعية تبث ساعتين في اليوم ويخرجها ويقدمها مذيعون شباب في الغالب الأعم.

كنت مسؤولا في هذا البرنامج عن فقرته الثقافية، وحاورت خلاله بعض الروائيين العرب من أمثال واسيني الأعرج ويوسف زيدان، كما حاورت مفكرين من طينة التونسي هشام جعيط معلقا على وفاة الراحل محمد عابد الجابري، أو المفكر محمد عمارة معلقا على رحيل المبدع نصر حامد أبو زيد.

كما حاورت شخصيات أخرى بينها أول رائد فضاء عربي، وهو الأمير السعودي سلطان بن سلمان، بالإضافة إلى محاورة آخر شخص يتحدث لهجة في قبرص معرضة للانقراض هي مزيج بين العربية والإغريقية.

← من الراديو ستنتقل إلى تلفزيون "بي بي سي"، ما هي المهام التي تتولاها هناك؟ وكيف يمكن أن تقارن تجربة العمل الإذاعي بالاشتغال في تلفزيون؟

■ قررت في لحظة زمن أن أعانق الحب الثاني: التلفزيون. تتيح الـ"بي بي سي" لصحفييها الانتقال بين أقسامها المختلفة إن هم رغبوا في ذلك. وأنا أعمل في الإذاعة، كان ينادي علي لإعداد وإخراج الحلقة المغاربية الأسبوعية من برنامج "أجندة مفتوحة"، ودام ذلك لما يربو عن سنتين كاملتين.

وكان ما كان، إذ سأنتهز هذه الفرصة لأنتقل للعمل في برنامج "نقطة حوار"، وهو برنامج تلفزيوني حواري يبث خمس مرات في الأسبوع.

تتلخص مهامي في هذا البرنامج في إعداد الحلقات وإخراجها على الهواء مباشرة. كما أعمل مذيعا ثانيا في البرنامج أتابع مشاركات زوار صحفاتنا المختلفة على الموقع الإلكتروني لـ"بي بي سي" أو على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي كفايسبوك وتويتر..

أما عن الفروق بين العمل الإذاعي والتلفزيوني، فهي عديدة. تتيح لك الإذاعة مثلا حيزا أكبر للإبداع وضغطا أقل مقارنة بالتلفزة. المستمع في الإذاعة كذلك لا يتعرف عليك إلا من خلال نبرة صوتك وإلقائك الإذاعي. طغيان الصورة أحيانا يغلب على المضمون في التلفزيون. يقول أحد أعرق صحفيي الـ" بي بي سي": التلفزيون بهرجة في النهاية.

لا تحتاج لمخاطبة المستمع في الإذاعة سوى لميكروفون ومادة إذاعية ومخرج في الأستوديو. أما التلفزيون فيحتاج لجيش من العاملين حتى تظهر أنت المقدم في أبهى صورة للمشاهد.

← ما هي أهم الأحداث التي غطيتها لصالح التلفزيون؟

■ غطيت للإذاعة والتلفزيون بعض الأحداث من بينها الانتخابات التشريعية المغربية المبكرة سنة 2011، كما غطيت مهرجانا ثقافيا سنويا يقام في لندن ويحتفي بالثقافة العربية بكل مشاربها. كما غطيت للراديو استفتاء اسكتلندا الأخير. وكانت زيارة تونس لتغطية الانتخابات التشريعية لسنة 2011 رحلة صحفية لا تنسى كذلك.

← لك اهتمامات أخرى غير الإعلام، حدثنا عنها؟

■ لو لم أكن صحفيا، لوددت أن أكون روائيا. يراودني القلم عن نفسي أحيانا فأكتب قصصا قصيرة، وقد كتبت قبلها شعرا كنت أنشره في مدونتي على الأنترنت. دبجت القصائد وأنا شاب يافع وانقطعت الآن بسبب ضرورات العمل وضغوط الحياة اليومية. مازال حلم كتابة رواية يأسرني وأتمنى ألا يطول تحقيق هذا الحلم.

ولأجل ذلك، أحاول متابعة كل منجز روائي يصدر في المغرب. فأنا شغوف بكتاب مغاربة مثل يوسف فاضل وعبد الرحيم لحبيبي وعبد الرحمن عبيد، وهي للأسف أسماء مغمورة في وطننا مشهورة في المشرق. لم يلتفت إلى بعضهم إلى حين رشحوا للقائمتين الطويلة والقصيرة لجائزة الرواية العربية البوكر.

أنا عاشق كبير للسفر. زرت عدة بلدان بغرض السياحة فقط من بينها تركيا وأذربيجان والأردن والصين والمكسيك وكوبا وغيرها. وأعشق تعلم اللغات، فبالإضافة إلى الأمازيغية لغة الأم، والعربية والفرنسية لغتي الدراسة، والإنجليزية لغة العمل، أتحدث الإسبانية، وأنا بصدد تعلم العبرية.

← تتابع عن كثب ما يجري ويدور في المغرب، كيف ترى الإعلام المغربي بعين الممارس في إحدى كبريات الدور الصحفية عالميا؟

■ يحز في النفس مآل الصحافة المكتوبة في المغرب. غاب ذلك التنوع الذي برز مع بدايات العهد الجديد. اختفت جرائد ومجلات نجحت في كسر طابوهات صحفية، واضطرت أقلام صحفية كانت تزعج السائد إلى الهجرة بحثا عن فضاءات للإبداع أكثر أمنا وتمنح الحرية.

أقرأ أحيانا الصحف اليومية وقد أجد نفس العناوين ونفس التغطيات الإخبارية بنفس زوايا المعالجة أحيانا. كأن المواد الصحفية تملى على الجرائد من عل.

لم تنجح أي صحيفة مغربية لحد الآن في زيادة عدد قراء الصحف المغربية عامة. كل ما يحصل هو أن القارئ ينتقل من قراءة صحيفة إلى صحيفة أخرى.

خفت كذلك وهج الصحافة الأسبوعية، فباستثناء صحيفة "الأيام" ومجلة "تيل كيل"، لم تعد هناك صحافة أسبوعية تنشر ملفات وتحقيقات مميزة. قد أستعير عبارة من أغنية المطرب القدير عبد الوهاب الدكالي: فين لوجورنال، فين الصحيفة، فين الجريدة الأولى، فين فين فين....

ويأتي الإعلام الإلكتروني ليزاحم الجرائد الورقية في قرائها. صحيح أن هناك تجارب ناجحة، لكن لا أرى سوى تكرار للمواد الصحفية بين هذا الموقع وذاك، وأحيانا تتم سرقة مقالات من موقع أو صحيفة ورقية دون عناء الإشارة إلى مصدرها.

أما المشهد الإذاعي في المغرب فيحتاج إلى بعض الضبط. لا يعني الراديو البتة فتح الأثير للمستمع ليقول ما شاء باللغة التي يشاء. وأتحدث هنا عن بعض الإذاعات التي لا تكاد تميز بينها وبين أحاديث المقاهي التي تتحدث عن كل شيء ولا شيء.

أما المشهد التلفزيوني، فيراوح مكانه. كان عدم منح رخص لإنشاء قنوات تلفزيونية في المغرب خطأ كبيرا. يحتاج المشاهد المغربي إلى تنوع ما حتى وإن كنت أعلم أنه لن يكون تنوعا حقيقيا يعكس اهتمامات الشعب المغربي ومشاربه الثقافية المتعددة.

يونس آيت مالك أمام مقر "البي بي سي"